

الأمطار التي جفت في المسرح



« في البدء كانت الكلمة » هكذا يقول الكتاب المقدس .
و « في البدء كان العمل » هكذا يقول الشاعر العظيم « جوته » .
ولكن (الكلمة) وحدها ثرثرة لا تجدى ، و (العمل) الأبيم ضجيج بلاطن ، فكيف لنا بتلاقح بين الكلمة العاملة والعمل المتكلم ؟ كيف لنا بترجمة (الكلمة) إلى سلوك وفعل ، وترشيد العمل بالوعي والفكر ؟
هذا هو السؤال الذي تطرحه مسرحية (ملك يبحث عن وظيفة) فعند مؤلف هذه المسرحية أن الملك هو الكلمة ، والوظيفة هي العمل ، وأنه إذا كانت الكلمة تثير وجدان الإنسان ليتمكن من تفسير العالم ، وكان العمل يعرف قوانين العالم ليتمكن من تغييره ، فإن التفسير والتغيير ليسا أسلوبين متعارضين ، ولكنها أسلوبان متكاملان لإعادة بناء الإنسان بعامة ، وإنساننا العرفي بوجه خاص .
فهنا مسرحية رمزية تدور حول ملك يحكم مملكته بالكلمات ، حتى لقد أصبح كل ما في المملكة كلمات في كلمات ، اللوائح كلمات ، المشروعات كلمات ، حتى الإنسان نفسه أصبح كلمة من الكلمات ، وكانت المدينة تعيش على المطر ، الذي يتوقف ذات عام ، فيجف الزرع في الأرض ، ويجف اللبن في الضرع ، ويجف

الكلمة في حلق النامس ، ويصبح العام عام ظمأ وجوع !!
وعبثاً يحاول الشعب استرضاء السماء لتجود عليه بالمطر ، ولكن بلا جدوى ،
فالسما لاتروى الأرض المزروعة بالكلمات ، وأخيراً يقرر الملك أن يبحث عن
وظيفة يعول بها شعبه الجائع الظمآن ، ولكن بلا جدوى أيضاً ، فالمالك الأخرى
فيها مايكفيها من الملوك !!

والسؤال الآن هو ماذا يحدث عندما تجف الأمطار في مدينة من المدن ، فيموت
الزرع ويحف الضرع وتعطش الأرض ويحجج الإنسان ، هل يتجه الملك إلى القرابين
يسترضى بها الآلهة ، أم يتوجه إلى المدن المجاورة يسألها العون ، أم يطالب شعبه بأن
يحفر الأرض بيديه ورجليه حتى يفجر مافيه من آبار ؟ وكما أنه ليس ثمة ولادة بدون
ألم ، فليس ثمة عمل بدون عرق ، فالألم والعرق هما ضريبة الحياة ، لأنه على حد
تعبير « أندريه مالرو » « إذا كانت الحياة لاتساوى شيئاً ، فإن شيئاً لايساوى
الحياة » !

هذا هو المعنى المحورى الذى أدار عليه « د . ميمى سرحان » جهده المسرحى
الأول . (ملك يبحث عن وظيفة) الذى يطرق به باب المسرح مزوداً بدراسة
جامعية لهذا الفن من ناحية ، مضمناً بهموم واقعنا الاجتماعى من ناحية أخرى ،
محاولاً من ناحية أخيرة أن تكون مسرحيته واحدة من تلك المسرحيات القليلة التى
جاءت بعد النكسة لاتنعى وتبكى ، ولكن لكى تكون استبصاراً موضوعياً بأسبابها
القرية والبعيدة !

غير أنه إذا لم يكن مطلوباً من العمل الفنى أن يقدم برنامجاً عملياً للخروج من
الأزمة ، بمقدار مايطلب منه أن يوحى ويومئ ، أن يهمس ويرمز . فهذا ماتراه فى
هذه المسرحية التى اختار لها الكاتب وسطاً رمزياً بكليته هو (المطر) وما يرمز إليه

من خصوبة إذا نزل ومن هلاك إذا انقطع ، أما الأسطورة الرمزية التي ابتكرها الكاتب ، فتحكى عن مدينة عتيقة وعريقة عمرها سبعة آلاف عام ، كانت تعيش على المطر ، ولم تجف فيها الأمطار إلا مرة واحدة ، وكان ذلك منذ مائتي عام ، واليوم يعود المطر ليحف من جديد ، ومن جديد تواجه المدينة أخطار الهلاك ، لأنها لم تفكر فيما كان ، ولم تحط لما يمكن أن يكون .

ولا يملك الملك إلا أن يجتمع برجال بلاطه يشاورهم في الأمر ، وبيحت معهم عن حل ، ويزرع الحل متمثلاً في حفر الأرض واستخراج الماء من الآبار ، ولكن اللوائح البيروقراطية الجاثمة فوق صدور رجال الدولة تحول دون تحقيقه ، فتسير الأمور من سيئ إلى أسوأ ، حتى يقرر الملك الأبيض القلب والعقل معاً أن يبحث عن وظيفة خارج مملكته يسد بها احتياجات شعبه .

ويبدأ الملك في مراسلة الممالك الخارجية .. وعندما تصله الردود يجمع أفراد الشعب ، ليقرأ عليهم الخطابات ، وتكون المفاجأة المأساوية عندما ترفض جميع الممالك طلب الملك ، وتعلن استغناءها عن خدماته ، فيحس بالحزن الجليل واليأس المروع ، فيجلس في العراء ملكاً بلا وظيفة على شعب بلا عمل .

وأخيراً وبعد أن يتعزى الجميع أمام الشعب ، الملك والملكة ، فضلاً عن الوزير ، الذي يعترف بانسحاقه أمام ذلك الغول الرهيب البشع الذي يسمى بالروتين أو النظام ، وولى العهد الذي يئس من البحث عن كتزه الوهمي في أعلى الجبل ، ولا يكتشفه إلا تابعه « عرقوب » الذي يدرك أن الكثر في أعماق نفوسنا وليس في الخارج ، وفي سواعدنا وليس في خيالاتنا ، فيقرر الهروب من المملكة ، وفي أعقابه تهرب الأميرة الحاملة بعد أن فجعت في فارس أحلامها ، الذي تصورته بطلا مغواراً ، يجوب الكهوف والجبال . ويختطفها فوق ظهر حصانه الأبيض ،

فإذا به مجرد دكتور عائد من بعثته العلمية في دراسة الجيولوجيا أو علم طبقات الأرض ، وحواله البيروقراطية إلى دكتور باطنى لاعلاقة له بالأرض ولا بالسما . أقول إنه بعد أن يعلن الجميع إفلاسهم أمام الشعب ، يقرر الشعب بنفسه أن يجد الحل ، والحل هو العمل .. أن يعملوا جميعاً كل في مهنته لا في وظيفته حتى تجود الأرض بالماء ، وتعود العصافير تصدح في سماء المدينة . إشارة إلى أن الحل هنا وليس هناك ، وأنه في أعماق نفوسنا وليس في أوهام من صنع الخيال ، وأنه بالعمل وحده يسق الزرع وتخضر الصحراء !

ولكن العمل الأبهك بدون الكلمة المبصرة لا يعثب الأرض بالماء ، ولا يسمع له رجوع صدى . هنا ، وبعد مرارة التجربة ، يدرك الشعب بقوة إرادة ووضوح بصيرة أنه هو الحل ، وهو الخلاص ، لا كفرد ولكن ككل وكمجموع . أما الحل فهو أن يعلم كيف يتكلم ليعمل ، وكيف يعمل لكي يجيد الكلام . وأما الخلاص فهو أن يؤمن بـ « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ! » .

وتلك هي المعادلة الصعبة للمقاومة على عاتق المثقف المصرى المعاصر ، وكأنها (اللفز الأوديبى) الشهير الذى يواجه كل من يتصدى لحله ، محاولاً قتل الوحش واستفاد المدينة .. كيف نجح بين الكلمة والعمل ، بحيث نتقل من حضارة (الكلامولوجيا) إلى حضارة (التكنولوجيا) ، أو من ثقافة اللفظ إلى ثقافة الأداء !!

وفي هذه المسرحية محاولة لحل هذه المعادلة الصعبة ، فالوظيفة التى يبحث عنها الملك هي في دلالتها الرمزية توظيف لجميع قوى الشعب العاملة نحو العمل المثر الخلاق ، نحو البناء أو الحفر إلى أعلى ، وهى المحاولة التى صلبها الكاتب في قالب الكوميديا الجديدة ، تلك التى تمزج الدموع بالضحكات ، وتوائم بين المفارقة

الفكرية ، وبين الشخصية الفكاهية ، وتجمع بين الرأى السياسى والنقد الاجتماعى ، بحيث نستطعم فى النهاية لوناً من الكوميديا المسيلة للدموع ، أو الكوميديا شديدة المرارة .

والمسرحية كما هو واضح من خطوط العرض والطول فيها تنطوى على حدث رئيسى ، هو انقطاع الأمطار وبحث الملك عن وظيفة ، وهو الحدث الذى كان يكفيه فصلان اثنان فقط بدلا من ثلاثة فصول . لكن الكاتب لكى يعمق حدثه الأصيلى لجأ إلى أحداث أخرى مصاحبة كقصة ولى العهد الذى يبحث عن كز وهى فى أعلى الجبل ، إشارة إلى أن الكتر فى أعماقنا وليس فى الخارج ، وكقصة العائد من الخارج الذى يتجمد فى وظيفته بدلا من أن يتحرك فى مهنته ، إشارة إلى مدى الفساد البيروقراطى فى المملكة ، وكقصة الأميرة الناعسة التى تحلم برجل عصابات بدلا من دكتور فى الجيولوجيا ، إشارة إلى عدم النضوج العاطفى فى الأسرة المالكة . هذا فضلا عن تفريعات أخرى أضعفت الحدث الأصيلى فى المسرحية وأدت إلى إطالة العرض بلا مبرر ، وكثرة الرموز بلا داع .

وقد اعتمد الكاتب فى بنائه الدرامى ، لا على الحدث المتطور من البداية إلى الوسط إلى النهاية فحسب ، بل وعلى الشخصيات التى يكمل بعضها بعضاً ، سواء بالسلب أو بالإيجاب ، حتى تكتمل عناصر اللوحة بكل ما فيها من تناقضات ، غير أن هذه الشخصيات ليست كلها على مستوى كينى واحد ، فبينما وفق الكاتب فى رسم شخصية الملك كشهيد للنظام ، وشخصية الوزير كشاهد على النظام ، لم يوفق تماماً فى رسم شخصية ولى العهد وتابعه « عرقوب » كإفراز سببى لهذا النظام . وبينما أجاد رسم شخصية العائد ، ربما لأنها شخصية الكاتب نفسه ، كانت

شخصية الأميرة تحتاج إلى مزيد من التعميق والتطوير ، أما شخصية الملكة فكانت مسطحة بلا أبعاد .

أما النهاية التي انتهى إليها الكاتب ، والتي تبشر بالخلاص بالعمل ، والخلاص بالحديث عن العدل ، فلم تكن مبررة بما فيه الكفاية ، فما الذى يملأ انبثاق الحل من أعماق أفراد الشعب دون قيادة بعينها أو دون أيديولوجية بالذات ؟ على أن الذى يهمنى هنا . هو أن المناخ العام للمسرحية ، ابتعد بكتابها عن المعاناة الذاتية ، واقترب من الموضوعية الدرامية ، فاستطاع أن يعبر عن صراع الشعب الغريزي ضد كل ما يعترض طريقه من معوقات .

وقد استطاع المخرج « أحمد عبد الحلیم » أن يجسد الكثير من الأفكار التى حفلت بها المسرحية ، وأن يصل بها إلى المتفرج عبر الكلمة المنظومة من ناحية والتمتعة الملحنة من ناحية أخرى ، فقد أحاط العرض بإطار من الغناء الموسيقى أحاله إلى كوميديا غنائية ، وصحيح أنه اتبع فى ذلك أحدث أساليب الإخراج ، ولكن الصحيح أيضاً أن هذه الرؤية الإخراجية ، أدت إلى إطالة العرض ، كما عملت على إحالته إلى « استعراض » !

وعيب الإطالة أنها أبرزت مافى النص من تفریع وتكرار ، وعيب الاستعراض أنه طمس معالم الصراع الدرامى فى المسرحية .

وقد ساعد الديقور الذى صممه الفنان « مجدى رزق » على تعميق هذه الهوة بين الواقعية ديكوراً ، وبين التعبيرية أداء وحركة . هذا على الرغم مما فى الديقور من جاليات تشكيلية ، تجلت فيها براعة هذا الفنان .

ونجحت الأغاني والألحان التى صاغها الموسيقى الشاب « جمال سلامة » فى أن تضى على العرض بعداً موسيقياً جديداً ، وصحيح أن الأغاني والألحان كانت

جميلة وعذبة في ذاتها ، ولكنها لم تكن جزءاً من النسيج العضوي للعرض أو للمسرحية ، وربما كان الاستثناء هنا هو لحن « عطشان يا صبايا » الذي انبثق من مضمون العمل ، ولو أنه وزع على العمل ككل ، وتمدد في ثنايا الفصول الثلاثة للمسرحية ، لكان ذلك في خدمة المضمون ، وفي خدمة تجانس الشكل الموسيقي العام .

وأخيراً - يجيء فريق الممثلين الذين وزعهم المخرج على الأدوار ، أو وزع عليهم الأدوار ، في طليعتهم الممثل الكبير « حمدي غيث » الذي يقوم لأول مرة بأداء دور كوميدى يصل به إلى ارتداء شخصية المهرج . وصحيح أنه أداءه يتمكن الأستاذ واقتداره . ولكنه لم يؤده من خلال عفوية الممثل وانطلاقه . وذلك بخلاف الممثلين الكوميديين « فاروق مجيب » و « حسن عابدين » اللذين أدى أولها دور (عرقوب) بحضور كوميدى واضح لاثوبه سوى ميلودرامية الأداء في المشهد الأخير ، وأدى الآخر دور الوزير بتدفق حقيق لا يشوبه سوى كثرة استخدام (اللوازم) سواء في الحركة أو في الكلام .

بعد هؤلاء تجيء « مديحة حمدي » في دور الأميرة ، فمضموناً لاشكلا ، أو دوراً وليس حضوراً ، لكي تجمع بين التمثيل والغناء ، أما أداءها التمثيلي فكان مزيجاً مما تمتاز به من موهبة الحضور المسرحي وما تتميز به من استقلال في الأداء والتعبير وذلك على العكس من أدائها الغنائي ، الذي لم يكن لحساب بل كان على حساب ذلك الدور .

أما « عايدة عبد العزيز » فقد فجرت موهبتها التمثيلية في دور الملكة ، وعرفت كيف تملأ فراغ هذا الدور . ولو أنها كانت ملكة من بولاق أو باب اللوق . وأما الممثل الموهوب « حمدي أحمد » فالأغلب أنه لم يكن هو الملائم للدور

(العائد) ولذلك حاول جاهداً أن يمثل لا من خلال لياقته الفنية للدور ، ولكن من خلال موهبته التمثيلية فوق المسرح !
وأخيراً فإن هذه المسرحية صرخة قلب نابض بالكلمة التي هي كل ما يملكه المؤلف ، إلى قلب آخر نابض بالعمل الذي هو أهم ما لدى الجمهور .